الفصل الأول

رجل الإيمان في وجه الإلحاد

- مراحل حياة النورسي
  - المرحلة الأولى: سعيد القديم
  - المرحلة الثانية: سعيد الجديد
  - المرحلة الثالثة: سعيد الثالث

رجل الإيمان في وجه الإلحاد

ليس يعنينا -ونحن نتحدث عن النورسي- أن نكتب تاريخ حياته على النسق المعروف في كتابة التراجم، وإنما الذي يعنينا أن نرصد مراحل جهاده، وأطوار فكره، وتطور وسائله الدعوية، ومواقفه الفكرية لنقدم ملخصاً لجهاده في مواجهة أكبر كارثة واجهها المسلمون في القرن العشرين، وهي كارثة سقوط الخلافة الإسلامية سنة ١٩٢٤م، وما تبع هذا السقوط من تحول تركيا عن الحرف العربي إلى الحرف اللاتيني، وحتى الآذان للصلاة حرم باللغة العربية، وحولت بعض المساجد إلى إسطبلات واستراحات للجنود، وأرغم الناس على لبس القبعة ونزع الطربوش، كما قطعت صلات تركيا -فعلياً- بالعالم الإسلامي ولم تبق إلاّ الصلة الدبلوماسية الشكلية.

لقد واجه بديع الزمان سعيد النورسي بكل الوسائل الفكرية والتربوية والإيمانية هذه الغارة (الكارثة) بمقدماتها، ثم بمراحلها المختلفة منذ العقد الأول من القرن العشرين، وهذه السنوات أو العقود تمثل عصر الشدة العظمى التي سيطر فيها الإلحاد وحُورِب الإيمان.

ولئن كان سعيد النورسي قد وُلد سنة ١٨٧٦م فقد عاش حياة طالب علم حقيقي نحو ثلاثة عقود. ثم عاش لأكثر من خمسة عقود وحتى الخامس والعشرين من رمضان سنة ١٣٧٩هـ الموافق ٢٣ من مارس سنة ١٩٦٠م حين وافته المنية عاش يجاهد بقلمه وجهوده التربوية والدعوية، وأمامه هدف واحد انصرف إليه بكلِّيته بعد تجارب متعددة، وهو بذر بذور الإيمان الصحيح عن طريق التربية القرآنية والنبوية، واقتلاع بذور الإلحاد من الأرض التركية ومن العالم الإسلامي.

ونقدم في الصفحات التالية نبذة عن حياة هذا المصلح العظيم، وداعية الإيمان القرآني الكبير، مركّزين على بعض مراحل حياته المتصلة بالدعوة، ومقدمين -من ثم- رأيه الإبداعي في أسباب تخلف المسلمين، مما جعلهم أهلاً لهذا التمزق، وخدمًا مطيعين للمذاهب الوافدة الهدامة، شرقية كانت أو غربية!

مراحل حياة النورسي

ولد سعيد النورسي في قرية "نُورْس" وهي إحدى قرى قضاء "خيزان" التابعة لولاية "بتليس" شرق الأناضول سنة (١٢٩٣هـ /١٨٧٦م).[١]

كان والده مميزاً ورعاً يُضرب به المثل في الزهد والورع، فلم يطعم أولاده من غير الحلال؛ حتى إنه إذا عاد بمواشيه من المراعي يشد أفواهها لئلا تأكل من مزارع الآخرين. وتقول أمه "نورية": إنها ما أرضعت أطفالها إلا وهي على طهر ووضوء.

وقد تلقى علومه الأولى في كُتّاب القرية "طاغ" على يد محمد أفندي سنة (١٨٨٢م)، وكان يتلقى على أخيه الكبير: "الملا عبد الله" دروساً في عطلة الأسبوع... إلا أنه لم يلبث في هذه القرية طويلاً فاستمر على دراسته في قرية "بيرمس".

وفي سنة ١٨٨٨م ذهب الملا سعيد إلى "بتليس" والتحق بمدرسة الشيخ "أمين أفندي".[٢]

وفي سنة ١٨٩٢م ذهب إلى ماردين حيث بدأ يلقى دروسه في جامع المدينة، ويجيب عن أسئلة قاصديه، وقد أحس والي المدينة "نادر بك" -متأثرا بوشاية البعض- بأن هذا الشخص خَطِر وأنه يُحْدث بلبلة في المدينة. لذلك قرر نفيه من المدينة، فسيق بصحبة الجندرمة (الشرطة) ويداه مغلولتان إلى مدينة

---

(١) اعتمدنا في هذه النبذة الوجيزة على الكتاب الرائع: بديع الزمان سعيد النورسي، نظرة عامة عن حياته وآثاره ص١٩ (بتصرف) لصديقنا الكبير الأستاذ إحسان قاسم الصالحي، ط٣ دار سوزلر.

(٢) المصدر السابق ص٢٠.

"بتليس". وقد عَرف "عمر باشا" والي بتليس آنذاك بعد مدة قصيرة من وصول "الملا سعيد" فضيلة هذا الشاب العالم ومنزلته فأحبه وأصر عليه أن يقيم معه في منزله. فامتنع "الملا سعيد" في أول الأمر ولكن الوالي ألح كثيراً حتى جعله يقبل وخصص له غرفة في بيته.(١)

وفي سنة ١٨٩٤م ذهب إلى "وان" بدعوة من واليها "حسن بك" حيث بقي عنده، ثم في منزل "طاهر باشا". ولقد هيأ الله له ظروف الالتقاء ببعض أساتذة العلوم الحديثة من جغرافية وكيمياء وغيرهما، وحينما دخل معهم في نقاشٍ شَعَر بقصوره في هذه العلوم، مما جعله يُقبل على تعلمها بشغف عظيم حتى أتقنها وأصبح متمكناً منها، لدرجة أنه كان قادراً على التأليف ومناقشة المختصين فيها.(٢)

وفي هذه الفترة وأثناء إقامته في "وان" قرأ في الصحف المحلية خبراً مدهشاً هزّ كيانه كله هزاً عنيفاً؛ فقد نشرت الصحف ما قاله وزير المستعمرات البريطاني "غلادستون" في مجلس العموم البريطاني وهو يخاطب النواب وبيده نسخة من القرآن الكريم: "مادام هذا القرآن بيد المسلمين فلن نستطيع أن نحكمهم، لذلك فلا مناص من أن نزيله من الوجود، أو نقطع صلة المسلمين به". وقد زلزل هذا التصريح الآثم كل كيانه، وصمم بينه وبين نفسه على أن يكرس كل حياته لإظهار إعجاز القرآن ورَبْطِ المسلمين بكتاب الله حيث قال: "لأبرهننَّ للعالم بأن القرآن شمس معنوية لا يخبو سناها ولا يمكن إطفاء نورها".(٣)

وقد عاد إلى إسطنبول مرة أخرى سنة ١٩٠٧م حيث سكن في "خان الشكرجي" في منطقة "فاتح" وكان هذا الخان مقرا لكثير من المفكرين والأدباء أمثال الشاعر المشهور "محمد عاكف".

وأثناء إقامته في إسطنبول علق لوحة على باب غرفته كتب فيها: هنا يجاب عن كل سؤال، وتحل كل مشكلة دون أن يسأل هو أحداً من الناس.(٤)

(١) المصدر السابق ص٢٣.

(٢) المصدر السابق ص٢٤.

(٣) المصدر السابق ص٢٥.

(٤) المصدر السابق ص٢٦.

وفي إسطنبول قدَّم سعيد النورسي عريضة إلى السلطان "عبد الحميد" يطلب فيها فتح المدارس التي تعلم العلوم الرياضية والفيزياء والكيمياء.. إلخ بجانب المدارس الدينية في شرق الأناضول، حيث يخيم الجهل والفقر على سكانه، ثم قابل السلطان نفسه لهذا الغرض.

وفي هذه الفترة من عمره صرف النورسي جل همه إلى إلقاء الخطب وكتابة المقالات مبيناً فيها مفهوم الحرية في الإسلام وتأثيرَ الإسلام في الحياة السياسية، ومُطالِباً بتحكيم الشريعة الغراء، ومحذراً من التفسير الخطأ للحرية، حيث شعر بأن هناك محاولات خبيثة وأيدي خفية تحاول خدمة أغراض مناهضة للإسلام فكان يقول: "بني وطني لا تسيئوا تفسير الحرية كي لا تذهب من أيديكم، لا تصبوا العبودية العفنة في قوالب براقة وتسقونا من علقمها، إن الحرية لا تتحقق ولا تنمو إلا بتطبيق أحكام الشريعة ومراعاة آدابها".(١)

وفي شتاء سنة (١٣١٧هـ/١٩١١م) زار ديار الشام حيث كانت أخته هناك، وألقى خطبة باللغة العربية في الجامع الأموي في دمشق مخاطباً العلماء وجمعاً غفيراً من المصلين، وقد طبعت خطبته هذه في كراسة تحت عنوان: "الخطبة الشامية" التي شخص فيها أمراض الأمة الإسلامية وعلاجاتها، منها:

١- اليأس والقنوط الذي مازال يحد أسباب الحياة في نفوسنا.

٢- موت الصدق في حياتنا الاجتماعية والسياسية.

٣- حب العداوة.

٤- تجاهل الرابطة الروحية التي تربط المؤمنين بعضهم ببعض.

٥- ذيوع الاستبداد، وذيوع الأمراض المعدية المختلفة.

٦- حصر الهمة في المنفعة الشخصية، دون الالتفات إلى النفع العام.(٢)

ولاشتهار بديع الزمان بعدائه للمحتلين، فقد دُعي إلى أنقرة -مركز حركة المقاومة- من قبل "مصطفي كمال"؛ للانضمام إليهم إلا أنه رفض الدعوة قائلاً:

---

(١) المصدر السابق ص٣٠.

(٢) المصدر السابق ص٣٦.

"إنني أريد أن أجاهد في أخطر الأمكنة، وليس وراء الخنادق، وأنا أرى أن مكاني هذا أخطر من الأناضول".

ولكن الدعوة تكررت، فأَرسل إلى أنقرة بعضَ طلابه ثم ذهب هو إليها سنة ١٩٢٢م قبيل عيد الأضحى؛ حيث استُقبل في المحطة استقبالاً حافلاً، إلا أنه لم يسعد في أنقرة كثيراً، إذ لاحظ بأسف بالغ أن معظم النواب لا يؤدون الصلاة، كما أن تصرفات كبارهم وسلوكهم المعادي للإسلام أحزنته كثيراً، لذلك فقد قرر أن يطبع بياناً في ١٩٢٣/١/١٩م يتضمن عشرة مواد، موجهاً إلى النواب يعظهم ويذكرهم بالإسلام مستهلاً بـ"يا أيها المبعوثون.. إنكم لمبعوثون ليوم عظيم" وكان من نتيجة هذا البيان الذي وزع بين النواب، وتولى إلقاءه الجنرال "كاظم قره بكر" (القائد الأول لحركة الاستقلال) أن ما يقارب ستين نائباً قد استقاموا على التدين وأقاموا الصلاة، حتى إن مسجد بناية المجلس لم يعد كافياً للمصلين، فانتقلوا إلى غرفة أكبر منه.

لم ترض القيادة اللادينية عن هذا البيان، فاستدعت بديع الزمان وحدثت بينه وبينهم مشادة عنيفة، وكان مما قاله لهم:

"إن أعظم حقيقة بعد الإيمان هي الصلاة، وإن الذي لا يصلي خائن، وحكم الخائن مردود..".[١]

وكانت هذه المقابلة في سنة ١٩٢٢م، وبعدها أدرك النورسي أنه لا أمل في هذا الجو، وأدرك أيضاً أن الله يفرض عليه مهمة كبيرة، وأن عليه أن يقف بكل مواهبه وطاقاته ضد الإلحاد.

ومنذ التاريخ السابق بدأت رحلته مع رسائل النور التي كان لها أكبر الأثر في نشر معالم الإيمان وغرس بذور اليقين في نفوس الناس في مواجهة عواصف الإلحاد العاتية.

وقد بلغت هذه الرسائل نحو أربعة آلاف صفحة موزعة على نحو عشرة مجلدات، وكان لها تأثير عظيم -ومازال- في مقاومة الإلحاد.

---

(١) المصدر السابق ص٥٢-٥٣.

ومن الطريف أن سعيد النورسي قام بنفسه بتقسيم حياته إلى مراحل ثلاث:

المرحلة الأولى: "سعيد القديم"

وهي مرحلة انخراطه في السياسة على أمل نشر الإسلام عن طريقها إلى أن تبين له فساد هذا الطريق؛ لأن وسائل السياسة الخبيثة لا تصلح لنشر دعوة الحق والنور الواضحة، وهذه المرحلة تمتد إلى سنة ١٩٢٦م.

المرحلة الثانية: "سعيد الجديد"

وهي مرحلة تمتد إلى سنة ١٩٤٩م، وكان شعار سعيد في هذه المرحلة: أعوذ بالله من الشيطان والسياسة، وقد ركز في هذه المرحلة على مسألة إنقاذ الإيمان في تركيا، ومع هجره للسياسة على هذا النحو الواضح؛ فإن أعداء الله تتبعوه ونفوه وسجنوه.

المرحلة الثالثة: "سعيد الثالث"

ومن الملاحظ أنه هو الذي أطلق على نفسه هذا الاسم بعد خروجه من سجن مدينة "أفيون"، وهي مرحلة تغيرت فيها الأوضاع في تركيا لصالح النورسي، وذلك بعودة الأحزاب السياسية إلى النشاط، وفوز الحزب الديمقراطي المعارض في الانتخابات وبالتالي إقصاء حزب الشعب الجمهوري الذي حارب الإسلام ربع قرن من الزمان.

ولنا أن نتوقع مدى واسعاً من الحرية، والتربية الجماعية، وذيوع رسائل النور في ظل القانون، وطباعتها، كما تميزت هذه الفترة بكثرة رحلات النورسي الدعوية والتربوية حتى لقي ربه سنة (١٣٧٩هـ/١٩٦٠م)، وذلك في مدينة أورفة، التي أصر على الذهاب إليها؛ ليموت فيها بالرغم من اعتلال صحته!!

وقد حاولت السلطات إخراجه منها فأبى، حتى لقي الله بها.

ولكن موته لم يكفهم، فما زالوا يفكرون في ملاحقته بعد موته، حتى أصدروا قراراً بنقل جثته من قبره إلى جهة غير معلومة، حتى أخفوا قبره عن

الناس، فلم يعرف له قبر حتى الآن، لقد لاحقه الملاحدة حياً وميتاً. ومع ذلك فقد عاش النورسي وعاشت أفكاره في قلوب الملايين عبر لغات حية كثيرة، ترجمت إليها كتبه ورسائله، وعبر وسائل الإعلام التي تصدر عن تلامذته، وعبر تلامذته المنتشرين في آسيا وأوربا وأمريكا وإفريقيا.

رحمه الله رحمة واسعة...